ضرب الأمثال في القرآن الكريم
لتربية المؤمنين

إعداد الدكتور

عبدالوهاب محمد عبدالله سليم

أستاذ التفسير المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنات القرين

ضرب الأمثال فى القرآن الكريم لتربية المؤمنين

عبدالوهاب محمد عبدالله سليم

شعبة أصول الدين - قسم التفسير وعلوم القرآن - كلية الدرسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر فرع القرين .

البريد الألكتروني : drsaeid2010@yahoo.com

الملخص

فإن ضرب الأمثال فى القرآن الكريم يعد لونا من ألوان التذكير والاعتبار ، وأسلوبا من أساليب الترغيب والترهيب ، وضربا من ضروب التوضيح والبيان، فالأمثال هى جزء من كتاب الله عز وجل ، ووجه من الوجوه التي نزل عليها ، وقد ذكرها الحق سبحانه وتعالى فى كتابه لأنها تؤثر فى القلوب وتجذب النفوس، فبها يكون الحق أبلج وسبيل الهداية أبين، والغائب حاضرا، والغامض واضحا والمعقول محسوسا والمتخيل ملموسا ، وضرب الأمثال يبرز المتخيل في معرض اليقين، ويجعل الغائب كأنه مشاهد، وربما تكون المعانى التي يراد تفهيمها معقولة صرفة ، فالوهم ينازع العقل فى إداركها حتي يحجبها عن اللحوق بما في العقل ، فبضرب الأمثال تبرز فى معرض المحسوس، وهناك تتجلى غياهب الأوهام، ويرتفع شغب الخصام. فضرب الأمثال لتربية الوجدان وضرب الأمثال لتهذيب السلوك .

الكلمات المفتاحية : ضرب ـ الأمثال ـ توضيح ـ بيان ـ الغائب ـ المشاهد .

believersS the educate to Qur'an Holy the in parables etting

dulwahab Muhammad Abdullah SalimAb

Interpretation and Sciences of the Holy Quran, Al-AZhar Qurain Branch University.

EMAIL :drsaeid2010@yahoo.com

Summary:

The setting of proverbs in the Noble Qur'an is a form of ouragement and reminder and consideration, a method of enc intimidation, and a form of clarification and clarification. Hearts and souls are attracted, through which the truth is clearer and the path to guidance is clearer, the absent is present, the le and the ambiguous is clear and the intelligible is tangib Perhaps the meanings that are meant to be understood are purely reasonable, for illusion disputes the mind in realizing it until it obscures it from catching up with what is in the mind. . So setting proverbs to nurture conscience and setting roverbs to refine behavior maginary is tangiblep.

spectator -absent -statement -clarification -proverbs -hit

Keywords : spectator – absent – statement – clarification – proverbs – hit

المقدمة

الحمد لله رب العالمين حمدا يليق بجلاله وجماله ، وله الشكر علي كمال إنعامه وعظيم إحسانه، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة والنعمة المسداة سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد...

فإن ضرب الأمثال في القرآن الكريم يعد لونا من ألوان التذكير والاعتبار ، وأسلوبا من أساليب الترغيب والترهيب ، وضربا من ضروب التوضيح والبيان.

قال تعالى:"وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ"[١]

وقال سبحانه:" وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ"[٢]

وقال عزوجل:" وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ"[٣].

وعن أبي هريرة– رضى الله عنه– عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أنزل القرآن على خمسة أوجه حلال وحرام ، ومحكم، ومتشابه، وأمثال ،فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال[٤].

فالأمثال جزء من كتاب الله عز وجل ، ووجه من الوجوه التي نزل عليها ، وقد ذكرها الحق سبحانه وتعالى في كتابه لأنها تؤثر في القلوب وتجذب النفوس، فبها يكون الحق أبلج وسبيل الهداية أبين، والغائب حاضرا والغامض واضحا والمعقول محسوسا والمتخيل ملموسا.

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٢٥
(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٣
(٣) سورة الزمر الآية ٢٧
(٤) الحديث أخرجه البيديقى في شعب الإيمان حديث رقم ٣٠٧ وذكره السيوطى في الإتقان ج، ٢ ص، ١٦٧ .

قال الإمام الفخر الرازى–رحمه الله–المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب مالا يؤثره وصف الشئ في نفسه، وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلى،والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقا للعقل ، وذلك نهاية الإيضاح ١٠هـ [١].

وقال العلامة الألوسي– رحمه الله– لضرب المثل شأن لا يخفي ، ونور لا يطفي، يرفع الستار عن وجوه الحقائق ،ويميط اللثام عن محيا الدقائق، ويبرز المتخيل في معرض اليقين، ويجعل الغائب كأنه مشاهد، وربما تكون المعاني التي يراد تفهيمها معقولة صرفة ، فالوهم ينازع العقل في إدراكها حتي يحجبها عن اللحوق بما في العقل ، فبضرب الأمثال تبرز في معرض المحسوس، وهناك تتجلى غياهب الأوهام، ويرتفع شغب الخصام. أهـ [٢].

وهكذا تبدو لنا أهمية الأمثال في القرآن الكريم وفوائدها، ونظرا لهذه الأهمية أردت أن أخرج بحثا في الأمثال التي ضربها الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم لتربية المؤمنين عسي الله أن يجعله دليلا لهداية المسلمين إلي أطيب الصفات وأجمل الخلال ليكونوا نموذجا عمليا لآداب الإسلام وقدوة حسنة للعالمين.

وقد تناولت هذا البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمه وذلك على النحو التالي:

أولا: المقدمة وفيها أهمية البحث ومحتوياته

ثانيا: التمهيد: وفيه بيان لمعني المثل في اللغة والاصطلاح

ثالثا: المبحث الأول: ضرب الأمثال لتربية الوجدان"[٣]

---

(١) مفاتيح الغيب للإمام الفخر الرازى،جـ٢،صـ٧٥ .
(٢) روح المعاني للعلامة الألوسي ، جـ ١ ، ص ١٦٥.
(٣) الوجدان في علم النفس جملة الظواهر الانفعاليه لدي الإنسان كالحب والبعض واللذة والألم ويقابل الفكر والنزوع- المعجم الوجيز مادة وجد صـ٦٦٠.

رابعا: المبحث الثاني: ضرب الأمثال لتهذيب السلوك .

خامسا: الخاتمة وفيها التوصيات والفهارس .

وبعد هذا العرض لمحتويات هذا البحث أسأل الله عز وجل أن يجعله في ميزان حسناتنا جميعاً وأن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه والحمد لله رب العالمين.

التمهيد

بيان معنى المثل في اللغة والاصطلاح

ذكر ابن منظور في لسان العرب كلمة المثل وبين لها عدة إطلاقات منها ما يلي:

١- المَثَلْ: الشَّبه يقال مِثْل ومَثَلْ وشَبه بمعني واحد.

٢- المَثَل: الصفة، قال تعالى(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ)-الآية[١]- أي صفتها- وقوله تعالى: (ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ) الآية[٢] أي صفتهم.

٣. المَثَل: العبرة، قال تعالى:" فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلا لِلْآخِرِينَ"[٣]

٤. المَثَل: الآية. قال تعالى في حق عيسى عليه السلام (وَجَعَلْنَاهُ مَثَلا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ[٤] أي آية تدل على نبوته ١هـ [٥].

أما في الاصلاح: فقد عرفه العلماء بعدة تعريفات منها ما يلي:

١-عرفه علماء اللغة : بأنه جملة من القول مقتطفة من كلام ، أو قائمة بذاتها تنقل ممن وردت فيه إلى ما يشابهه دون تغيير(مثل الرائد لا يكذبُ أهْلَه)أ.هـ[٦] .

---

(١) سورة محمد- من الآية١٥.
(٢) سورة الفتح- من الآية ٢٩.
(٣) سورة الزخرف- من الآية٥٦.
(٤) سورة الزخرف- من الآية ٥٩.
(٥) لسان العرب لابن منظور- باب مثل جـ١٤،صـــ١٨,١٧,١٥-بتصرف،طـ\دار صادر.
(٦) المعجم الوجيز الصادر عن مجمع اللغة العربية- طبعه خاصه بوزارة التربية والتعليم سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م. مادة مثل صـــ٥٧٢

وعرفه الراغب فقال: المثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهم الآخر ويصوره[١]

٢- عرفه علماء الأدب بأنه قول محكي سائر يقصد به تشبيه حال الذى حُكى فيه بحال الذى قيل لأجله، أي يشبه مضربه بمورده مثل (رّبَّ رمية من غير رام) أي رب رمية مصيبة حصلت من رام شأنه أن يخطئ ١هـ [٢].

٣-عرفه علماء البيان بأنه: المجاز المركب الذى تكون علاقته المشابهة متى فشا استعماله. وأصله الاستعارة التمثيلية كقولك للمتردد في أمر (ما لي أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى)[٣]١هـ.

وإذا نظرنا إلى أمثال القرآن الكريم نجدها لا تنطبق على هذه التعريفات كما قال الشيخ مناع القطان: أمثال القرآن الكريم لا يستقيم حملها على ما يذكر في كتب اللغة لدى من ألفوا في الأمثال، إذ ليست أمثال القرآن أقولا استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها، ولا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان، فمن أمثال القرآن ما ليس باستعارة وما لم يفش استعماله، ولذا يمكن تعريف المثل في القرآن الكريم: بأنه إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة لها وقعها في النفس، سواء أكانت تشبيها أو قولا مرسلا١٠هـ [٤].

ومعنى ضرب المثل كما قال الراغب مأخوذ من ضرب الدراهم، وهو ذكر شيء أثره يظهر في غيره ١٠هـ [٥]. كأن المثل يظهر أثره في الممثل له، كما تظهر الآثار والنقوش على الدرهم إذا أُخرج من قالبه الذى صُّب فيه.

(١) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني مادة مثل صـــ٢٩٤،ط\دار الكتب العلمية.
(٢) مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان،صـــ٢٩١ط \ مكتبة المعارف للنشر والتوزيع-الرياض.
(٣) المرجع السابق،صـــ٢٩٢.
(٤) مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان، صـــ٢٩٢.
(٥) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى، مادة ضرب ص ٣٣١، ط دار الكتب العلمية.

قال صاحب المنار: واختير لفظ الضرب لأنه يأتي عند إرادة التأثير ، وهيج الانفعال كأنه يقرع الأذن لينفذ أثره إلى القلب وأعماق النفس ١٠هـ [١]

فضرب الأمثال له أثره الكبير في النفس الإنسانية، فمثلا هي تكره الكفر إذا ذكر لها، ولكن تكون أشد كرهاً له إذا مُثّل لها في صورة الظلام الدامس، وكذلك ترغب في الإيمان إذا ذكر، ولكن تكون أشد رغبه فيه إذا مثل لها بالنور ، وهكذا تجد للأمثال أثراً في تثبيت كل حق، ودحض كل باطل، ولذا كان ضرب الأمثال من أجلَّ الطرائق التي انتهجها القرآن الكريم في تقرير قضاياه.

(١) تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار للشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا جـ١،صـ٢٣٦، ط المنار بمصر سنة ١٣٤٦هـ.

المبحث الأول

ضرب الأمثال لتربية الوجدان

وأعنى بتربية الوجدان تزكية مكنون الانسان وداخله لإحياء ضميره وإيقاظ مشاعره وذلك بترسيخ بعض المفاهيم في وجدانه لتكون هي قوة الدفع التي تحركه نحو الفضيلة وتبعده عن الرذيلة.

وهذه المفاهيم تتمثل فيما يلى :

(١) تحرير الفكر ونبذ التقليد .

(٢) تحسين الإيمان وتقبيح الكفر .

(٣) ثبات الحق واضمحلال الباطل .

(٤) الإخلاص هو الأساس في قبول الأعمال .

(٥) تقرير المسؤولية الشخصية والتبعة الفردية .

(٦) الترغيب في الجنة والترهيب من النار .

(٧) الوقوف على حقيقة الدنيا .

(٨) التذكير بسنن الله في السابقين .

وقد كان لضرب الأمثال في القرآن الكريم دور بارز في ترسيخ هذه المفاهيم وذلك على النحو التالي :

أولاً : ضرب المثل لتحرير الفكر ونبذ التقليد[١] .

قال تعالي: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ }[٢]

هاتان الآيتان تشيران إلى ما كان عليه المشركون من إهمال للعقل وجمود للفكر وتبعية عمياء للآباء والأجداد ففي الآية الأولى يبين الحق سبحانه وتعالى أنه إذا قيل لهؤلاء المشركين اتبعوا ما انزل الله على رسوله "صلي الله عليه وسلم" وما جاء به من الحق الواضح الذى لا شبهة فيه قالوا بدون فكر وروية بل نتبع دين أجدادنا وما ألفينا عليه آباءنا

ثم ضرب الحق سبحانه وتعالى لهم مثلا في الآية الثانية يوضح صورتهم بالضبط فقال سبحانه { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ } [٣]

يقول الحافظ ابن كثير – رحمه الله – يقول تعالى [واذا قيل] لهؤلاء الكفرة من المشركين [اتبعوا ما أنزل الله] على رسوله واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل قالوا في جواب ذلك [بل نتبع ما ألفينا] أي وجدنا عليه آباءنا أي من عبادة الأصنام والأنداد ثم ضرب لهم مثلا فقال [ومثل الذين كفروا] أي فيما هم فيه من الغى والضلال والجهل كالدواب السارحة التي لا تفهم ما يقال لها بل إذا نعق بها راعيها أي دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه بل تسمع صوته فقط . [٤]

(١) وأعنى بالتقليد المنبوذ هو التقليد في الباطل .
(٢) سورة البقرة الآية ١٧٠.
(٣) سورة البقرة الآية ١٧١.
(٤) تفسير ابن كثير ح١ صـ٢٠٤ بتصرف .

وفي هذا المثل تصوير رائع لحالهم فهم لانهماكم في تقليد آبائهم وإخلادهم إلى ما هم فيه من ضلال لا يلقون أسماعهم إلى ما يتلى عليهم من قرآن ولا ينظرون إلى ما يعرض عليهم من آيات ولا يلتفتون إلى داعى الحق فكأنهم كما أخبر القرآن الكريم [صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ]

يقول الشيخ المراغي – رحمه الله – قوله تعالى (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ) أي إنهم يتصامون عن سماع الحق فكأنهم صم، ولا يستجيبون لما يدعون اليه فكأنهم خرس ولا ينظرون في آياته تعالى في الآفاق وفي أنفسهم فكأنهم عمى فهم لا يعقلون لعملهم مبدأ ولا غاية بل ينقادون لغيرهم كما هو شأن الحيوان ومن ثم اتبعوا من لا يعقلون ولا يهتدون .أ هـ [1]

وهكذا نجد القرآن الكريم قد سلك مسلكا رائعا في التنفير من التقليد فقد صور بهذا المثل الحالة المهينة التي يكون عليها المقلدون حيث صورهم بالبهائم التي لا تفهم ولا تعي فيكون ذلك زجرا وردعا لكل من يسمع هذا المثل أن يتصور نفسه في مثل هذه الحالة.

وفي ذلك تربيه للعقل وتحرير للفكر ودعوة للنظر في الآيات للوصول في النهاية إلى الحق الذى يقرر مكارم الأخلاق .

ثانيا : ضرب المثل لتحسين الإيمان وتقبيح الكفر

وذلك بعقد موازنة بين حال المؤمن وحال الكافر لإبراز الصورة الوضيئة التي يكون عليها المؤمن والصورة المزرية التي يكون عليها الكافر وذلك لتثبيت الإيمان في القلوب ليكون هو العامل الأول في التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل .

وقد جاءت الأمثال في القرآن الكريم لتحقيق هذا الأمر على النحو التالي :

(١) تفسير المراغي ج٢ صـ٤٦ .

المثل الأول : ضرب المثل بتشبيه المؤمن بالحي الذى يسعى في نور والكافر بالميت الذى يقبع في ظلام .

قال تعالي: { أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [١].

قال الإمام الفخر الرازي – رحمه الله – ذكر الله تعالى مثلا يدل على حال المؤمن المهتدى وعلى حال الكافر الضال فبين أن المؤمن المهتدى بمنزلة من كان ميتا فجعل حيا بعد ذلك وأعطى نورا يهتدى به في مصالحه، وأن الكافر بمنزلة من هو في ظلمات منغمس فيها لا خلاص له منها فيكون متحيرا على الدوام .[٢]

وفرق شاسع بين حي يحيا في نور يهتدى إلى مطلوبه وبين ميت تراكمت عليه الظلمات لا يشعر بشيء ولا يراه أحد .

المثل الثاني : ضرب المثل بتشبيه الكافر بالأعمى الأصم والمؤمن بالبصير السميع .

قال تعالي: { مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ } [٣].

يقول صاحب الفتوحات – رحمه الله – المراد بالأعمى والأصم ذات واحدة اتصفت بالوصفين وكذا البصير والسميع، أي مثل الكفار وعدم الاهتداء بقلوبهم كمثل شخص اتصف بالعمى والصمم الحسيين فلا يهتدى لمقصوده، ومثل المؤمنين في الاهتداء ببصائرهم كمثل شخص اتصف بالبصر والسمع الحسيين فاهتدى لمطلوبه[٤].

---

(١) سورة الانعام الآية ١٢٢
(٢) مفاتيح الغيب ح١٣ صـ١٤١
(٣) سورة هود الآية ٢٤
(٤) حاشية الجمل جـ٢ ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

وهكذا صور لنا المثل القرآني حال المؤمن وحال الكافر بصورة لا تحتاج إلى جدل فكرى او نقاش عقلي إذا أسقطنا المعاني الذهنية على الصورة الواقعية، فصور حال الكافر بالرجل الأعمى الأصم والمؤمن بالرجل البصير السميع ثم قال "هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً " ولا يمكن لعاقل أن يسوى بين الحالتين ولذا قال أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ أي هذه قضيه بديهيه لا تحتاج الى تفكير بل يكفي مجرد التذكير .

المثل الثالث : ضرب المثل بتشبيه الكافر بالعبد الذى يملكه أسياد متشاكسون والمؤمن بالعبد الذى يملكه سيد واحد .

قال تعالي: { ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَّجُلا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ } [1] .

يقول الإمام الفخر – رحمه الله – تقدير الكلام : اضرب لقومك مثلا وقل لهم ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع كل واحد منهم يدعى أنه عبده فهم يتجاذبونه في حوائجهم وهو متحير في أمره فكلما أرضى أحدهم غضب الباقون فإذا احتاج في مهم إليهم فكل واحد منهم يرده إلى الآخر فهو يبقى متحيرا لا يعرف أيهم أولى بأن يطلب رضاه وأيهم يعينه في حاجاته فهو بهذا السبب في عذاب دائم وتعب مقيم ورجل آخر له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الإخلاص وذلك المخدوم يعينه على مهماته فأي هذين العبدين أحسن حالا وأحمد شأنا .[2]

فالمثل يصور حالة الإعياء والتعب التي تصيب المشرك جراء التكاليف الكثيرة لهذه الآلهة المتعددة وحالة الراحة والطمأنينة التي عليها المؤمن الذى يعبد إلهاً واحداً وذلك بتشبيه المشرك بالعبد الذى يتقاسم ملكيته عدة شركاء متخاصمون

(١) سورة الزمر الآية .
(٢) مفاتيح الغيب صـ٢٦، صـ٢٥٤ .

يتنازعون في حقهم فيه ويتجاذبونه فيما بينهم وهو بينهم حائر لا يقدر على إرضاء أحدهم فضلا عن إرضاء الجميع كل له توجيه وكل له تكليف فهو في عناء دائم وقلق مستمر، وتشبيه المؤمن بالعبد الذى يملكه سيد واحد يعرف ماله وما عليه فيعيش مطمئن القلب وينعم براحة البال .

وبهذه الأمثال يظهر الفرق الشاسع بين الكفر والإيمان ويعرف المؤمن قدر النعمة التي وهبها الله إليه وهى نعمة الإيمان فيثبت عليها ويعض عليها بالنواجز واذا استقر الإيمان في قلب المؤمن ووصل إلى درجة اليقين وعلم أن له ربا يراقب حركته في كل صغيرة وكبيرة كان ذلك أدعى لفعل الحسن وترك القبيح.

ثالثا: ضرب المثل لبيان ثبات الحق واضمحلال الباطل .

قال تعالي: { أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ } [1] .

يقول الحافظ ابن كثير – رحمه الله – اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه والباطل في اضمحلاله وفنائه فقال تعالى " أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء " أي مطرا " فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا "أي أخذ كل واحد بحسبه فهذا كبير وسع كثيرا وهذا صغير فوسع بقدره وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها فمنها ما يسع علما كثيرا ومنها مالا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها " فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا" أي فجاء على وجه الماء الذى سال في هذه الأودية زبد عال عليه هذا مثل .

(١) سورة الرعد الآية ١٧ .

وقوله { وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ } الآية ، هذا هو المثل الثاني وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضه ابتغاء حلية ليجعل حلية أو نحاسا أو حديدا فيجعل متاعا فإنه يعلوه زبد منه كما يعلوا ذلك زبد منه (كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ) أي إذا اجتمعا لإثبات للباطل ولا دوام له كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار بل يذهب ويضمحل ولهذا قال " فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء "أي لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شئ ولا يبقى الا الماء وذلك الذهب ونحوه ينتفع به ولهذا قال "وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ". (١)

وهذا المثل يبين ثبات الحق واضمحلال الباطل على أتم وجه وفي أبهى صورة حتى كأن المثل هو نفس الحق والباطل قال تعالى " كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ " .

قال العلامة الألوسي – رحمه الله – (كَذَلِكَ) أي مثل ذلك الضرب البديع المشتمل على نكته رائقة " يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ "أي مثل الحق ومثل الباطل والحذف للابتناء على كمال التماثل بين الممثل والممثل به كأن المثل المضروب عين الحق والباطل .(٢)

وتشبيه الحق بالماء وجوهر المعادن يشير إلى بقائه وأنه أصل الحياة ومصدر القوة والمتعة وأس الجمال والزينة وبه منافع الناس وذلك بخلاف الباطل الذى يعلو فترة ثم يزول كالزبد الذى يطفو قليلا ثم يذهب جفاء قال تعالى " فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ " .

(١) تفسير ابن كثير حـ٢ صـ٥٠٨ .
(٢) روح المعاني حـ٧ صـ١٢٤.

قال العلامة ابن عاشور – رحمه الله – قد علم أن الزبد مثل للباطل وأن الماء مثل للحق فارتقى عند ذلك إلى ما في المثلين من صفتي البقاء والزوال ليتوصل بذلك إلى البشارة والنذارة لأهل الحق وأهل الباطل بأن الفريق الأول هو الباقي الدائم وأن الفريق الثاني زائل بائد .[١]

وهذا المثل يرسخ في نفس الإنسان أن الحق ثابت لا يتغير وأن الباطل مهما علا وانتفش فمصيره إلى زوال وهذا يربى في النفس الثبات على الحق والتمسك به مهما كانت الظروف ومهما كانت العواقب ونبذ الباطل مهما علا وتضخم ومهما بلغ أصحابه من مراتب ومهما حصلوا من أموال فمصير كل ذلك إلى زوال.

رابعا : ضرب المثل لبيان أن الإخلاص هو الأساس في قبول الأعمال.

والإخلاص يتمثل في أمرين عقيدة صحيحه ونية سليمة فأعمال الكفار محبطة وأعمال المرائين باطلة وأعمال المخلصين في ازدهار ونماء وقد ضرب الحق سبحانه وتعالى الأمثال في القرآن الكريم لبيان هذه الحقيقة وذلك على النحو التالي :

١– ضرب المثل لبيان إحباط أعمال الكفار وذلك في ثلاثة أمثال :

المثل الاول : تشبيه أعمال الكفار بالسراب الذى لا أساس له ولا فائدة منه.

قال تعالي: { وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ } [٢] .

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – هذا مثل الكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شئ من الأعمال والاعتقادات وليسوا في نفس الأمر على شئ

(١) التحرير والتنوير حـ١٣ صـ١٢٠.
(٢) سورة النور الآية ٣٩ .

فمثلهم في ذلك كالسراب الذى يرى في القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام فإذا رأي السراب من هو محتاج إلى الماء يحسبه ماء قصده يشرب منه فلما انتهى إليه " لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا " فكذلك الكافر يحسب أَنه قد عمل عملا وأنه قد حصل شيئا فإذا وافي الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله لم يجد له شيئا بالكلية قدُ قبل .(١)

المثل الثانى : تشبيه أعمال الكفار بالرماد الذى تسحقه الريح .

قال تعالي: مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ (٢)

قال الإمام القرطبى – رحمه الله – والرماد ما بقى بعد احتراق الشئ فضرب الله في هذه الآية مثلا لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف والعصف شدة الريح وإنما كان كذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله .(٣)

المثل الثالث : تشبيه أعمال الكفار بالهباء المنثور .

قال تعالي: { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا } (٤).

والهباء كما قال الراغب دقائق التراب وما أثبت في الهواء فلا يبدو إلا في أثناء ضوء الشمس في الكوة .(٥)

ووصف الهباء بأنه منثور فيه مبالغة لضياع أعمالهم فإن الهباء نفسه إذا كان مجتمعا يتفلت من الإنسان ويصعب عليه إمساكه فما بالك إذا كان منثورا ؟

---

(١) تفسير ابن كثير حـ٣ صـ٣٩٦.
(٢) سورة ابراهيم الآية ١٨ .
(٣) تفسير القرطبي حـ٦ صـ٣٥٨٢ .
(٤) سورة الفرقان الآية ٢٣ .
(٥) مفردات الفاظ القرآن للراغب الأصفهاني صـ٥٦٨.

يقول العلامة الألوسي – رحمه الله – ووصف الهباء بقوله تعالى " منثورا" مبالغة في إلغاء أعمالهم فإن الهباء تراه منتظما مع الضوء فإذا حركته الريح تناثر وذهب كل مذهب فلم يكف أن شبه أعمالهم بالهباء حتى جعل متناثراً لا يمكن جمعه والانتفاع به أصلا .(١)

فهذه الأمثال الثلاثة تبين أن ما يعمله الكفار من الصالحات ليس مقبولا عند الله تعالى ولا فائدة منه في الآخرة فهو كالسراب الذى لا أساس له أو الرماد المسحوق في الهواء أو الهباء المنثور وذلك لأنهم لم يعملوا هذه الأعمال لله أو اشركوا معه فيها غيره والله أغنى الشركاء عن الشرك .

٢- ضرب المثل لبيان بطلان أعمال المرائين :

قال تعالي: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}(٢).

هذه الآية الكريمة تحذر المؤمنين من المن والأذى في الصدقات حتى لا تبطل صدقاتهم كما تبطل بالرياء ثم ضرب الحق سبحانه وتعالى مثلا لبيان بطلان الصدقات بالرياء فقال تعالى " فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ " .

قال العلامة ابن عاشور – رحمه الله – مثل حال الكافر الذى ينفق ماله رئاء الناس بحال صفوان " وهو الحجر الأملس " عليه تراب يغشيه يعنى يخاله الناظر تربة كريمة صالحة للبذر ، فتقدير الكلام عليه تراب صالح للزرع فإذا زرعه الزارع

(١) روح المعاني حـ١٠ صـ ١٥٠ .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٤.

وأصابه وابل وطمع الزارع في زكاء زرعه جرفه الماء من وجه الصفوان فلم يترك منه شيئا وبقى مكانه صلدا أملس فخاب أمل زارعه .[١]

وهذا المثل الذى ضربه الحق سبحانه وتعالى لبيان بطلان عمل المتصدق رياء هو بيان لبطلان كل الأعمال التي لا يرجى بها وجه الله ويرجى بها ثناء الناس ومدحهم فهؤلاء ليس لهم عند الله أجر بل أجرهم عند من عملوا لأجلهم .

روى الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة– رضى الله عنه – قال سمعت رسول الله "صلى الله عليه وسلم" يقول إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال فلان جرئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار .[٢]

وهكذا مصير كل الأعمال التي لا يرجى بها وجه الله تعالى وأريد بها السمعة والرياء وثناء الناس ومدحهم .

(١) التحرير والتنوير حـ٣ صـ٤٨ بتصرف .
(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم كتاب الامارة باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار رقم ٣٦٣٨.

٣- ضرب المثل لبيان ازدهار أعمال المخلصين :

قال تعالي: { وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }[١] .

قال الشيخ السعدى – رحمه الله – لما كانت نفقتهم مقبولة مضاعفة لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام " ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ " أي ينفقون وهم ثابتون على وجه السماحة والصدق فمثل هذا العمل " كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ " وهو المكان المرتفع لأنه يتبين للرياح والشمس والماء فيها غزير، فإن لم يصبها الوابل الغزير حصل طل كاف لطيب منبتها وحسن أرضها وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها ولهذا " فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ" أي متضاعفا وهذه الجنة التي على هذا الوصف هي أعلى ما يطلبه الناس فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل .[٢]

وبضرب هذه الأمثال التي توضح إبطال أعمال الكفار والمرائين وازدهار أعمال المخلصين تتضح هذه الحقيقة للمؤمن فيراجع نفسه قبل الإقبال على أي عمل فيصحح عقيدته فلا يتقرب بشيء الا لله ويصحح نيته فلا يرجو بعمله إلا وجه الله وإذا صلحت العقيدة وصحت النية وتحقق الإخلاص قبل الله عمله وكانت كل أعماله صالحة في جميع أحواله في خلوته وجلوته وسره وعلانيته .

خامسا : ضرب المثل لبيان التبعة الفردية والمسؤلية الشخصية .

قال تعالي:{ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٥ .
(٢) تفسير السعدى حـ١ صـ١٩٨ .

النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [١] .

قال الإمام الصاوي– رحمه الله – لما كان لبعض الكفار قرابة بالمسلمين فربما توهموا أنها تنفعهم وكان لبعض المسلمين قرابه بالكفار وربما توهموا أنها تضرهم ضرب الله لكل مثلا .[٢]

وفي هذين المثلين بيان بأنه لا شفاعة في الكفر فلا يشفع للكافر أن قريبه مؤمن صالح حتى ولوكان نبيا من الأنبياء وهذا يتمثل في امرأة نوح وامرأة لوط ،وكذلك لا عذر لأحد في الكفر حتى ولو كان تحت أطغى الطغاة وهذا يتمثل في امرأة فرعون .

وهذا المفهوم التبعة الفردية والمسؤلية الشخصية قد قرره القرآن الكريم في آيات كثيره منها قولة تعالي: وَاتَّقُواْ يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا [٣] .

وقوله عز وجل: { وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [٤] .

وقوله سبحانه: { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} [٥].

فكل إنسان يحاسب وحده أمام الله عز وجل لا ينفعه أحد وإذا تقرر ذلك في النفوس فلا يُقبل الإنسان على فعل المنكرات بحجة أنه نسيب أو شريف أو تابع لأمير أو نحو ذلك، كل ذلك لا يغنى عنه من الله شيئا ولا ينفع الإنسان إلا عمله .

(١) سورة التحريم الآيتان ١٠-١١ .
(٢) حاشيه الصاوي حـ٤ صـ١٩٠ .
(٣) سورة البقرة من الآية ٤٨-١٢٣ .
(٤) سورة فاطر الآية ١٨ .
(٥) سورة المدثر الآية ٣٨ .

وقد ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) المثل الأعظم في عدم المحاباة واقرار التبعة الفردية والمسؤلية الشخصية حين قال [وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها] (١) .

وما ظهر الفساد في الأمة ولا ثار أبناؤها قديما وحديثا إلا حينما رأوا أن قرابة من مُكن لهم في الأرض قد أخذوا المكانة بين الناس بدون حق ، ولو علم كل إنسان أنه محاسب على عمله وأن التبعة عليه وحده وتربى المؤمنون على هذا المفهوم لأخذ كل صاحب حق حقه وعاش الناس في أوطانهم آمنين مطمئنين .

سادسا : ضرب المثل للترغيب في الجنة والترهيب من النار .

قال تعالي: { مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} (٢).

وقال عز وجل: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفي وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (٣).

فالمثل في هاتين الآيتين يصور المفارقة العجيبة بين نعيم الجنة وعذاب النار فالجنة فيها أنهار من ماء ولبن وخمر وعسل ومن كل الثمرات ومغفرة من الله ، والجحيم ليس فيها إلا الحميم الذى يشوى الوجوه ويقطع الأمعاء.

قال العلامة الألوسي . رحمه الله . قوله تعالي "فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ" أي غير متغير الطعم والريح لطول مكثه ونحوه " وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ "

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الحدود باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إللى السلطان حديث رقم ٦٤٠٦ وأخرجه مسلم في كتاب الحدود باب قطع السارق الشريف وغيره والنهى عن الشفاعة في الحدود رقم٣١٩٧.
(٢) سورة الرعد الآية ٣٥.
(٣) سورة محمد الآية ١٥ .

لم يحض ولم يصر قارصا ولا حاذرا كألبان الدنيا وتغير الريح لا يفارق تغير الطعم " وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ " أي لذيذة لهم ليس فيها كراهة طعم وريح ولا غائلة سكر وخمار كخمور الدنيا فإنها لا لذة في نفس شربها وفيها من المكاره والغوائل ما فيها " وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفي " مما يخالفه فلا يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها .(١)

وبعد ما ذكر الحق سبحانه وتعالى الشراب ذكر الطعام فقال سبحانه " وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ "

قال الإمام الفخر – رحمه الله – بعد ذكر المشروب أشار إلى المأكول ولما كان في الجنة الأكل للذة لا للحاجة ذكر الثمار فإنها تؤكل للذة بخلاف الخبز واللحم . (٢)

وبعدما ذكر الطعام أشار إلى الظل الذى يحلو المكث فيه بعد الأكل فقال تعالى في سورة الرعد " أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ".

قال العلامة ابن عاشور – رحمه الله – : ودوام الظل كناية عن التفاف الأشجار بحيث لا فراغ بينها تنفذ منه الشمس وذلك من محامد الجنات وملاذها.(٣)

وبعد ما ذكر الحق سبحانه وتعالى متعه الجسد ذكر متعه الروح وذلك يكون بستر العيوب ومغفرة الذنوب وعدم ذكرها حتى لا تنغص على أصحابها فقال تعالى: (وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ)

قال العلامة الألوسي – رحمه الله – المراد بالمغفرة هنا ستر ذنوبهم وعدم ذكرها لهم لئلا يستحيوا فتتنغص لذتهم .(٤)

---

(١) روح المعاني حـ١٣ صـ٢٠٤-٢٠٥ .
(٢) مفاتيح الغيب حـ ٢٨ صـ٥١ .
(٣) التحرير والتنوير حـ١٣ صـ ١٥٥ .
(٤) روح المعاني حـ١٣ صـ ٢٠٥ .

وبعد الفراغ من عرض النعيم تأتى الموازنة بينه وبين الجحيم فقال تعالى في مَثَل سورة الرعد " تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ " وفي مثل سورة الحديد بعدما بين أنهار الجنة وثمارها قال تعالى –" كَمَن هو خالِدٌ في النّارِ وسُقُوا ماءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أمْعاءَهُمْ " . أي هل حال من في الجنة ينغمس في أنهارها ويرتع في ظلالها ويأكل من ثمارها كمن هو خالد في النار لا يتجرع إلا الحميم ؟

وإذا ما عقد الإنسان هذه المقارنة بين ما وعد الله به المتقين و ما أوعد به المجرمين واستحضر في ذهنه هذه الصورة التي جاءت في المثلين كان لها أكبر الأثر في تجنب المنكرات والسعي إلى الخيرات فما انتشرت الفواحش إلا بسبب الغفلة عن العقاب وما قل الخير عند الناس إلا بسبب الغفلة عن الثواب .

سابعا : ضرب المثل للوقوف على حقيقة الدنيا .

قال تعالي: { إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }[1] .

وقال عز: { وجل وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا } [2] .

وقال سبحانه: { اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ

(١) سورة يونس الآية ٢٤ .
(٢) سورة الكهف الآية ٤٥ .

حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ } [1] .

يقول الحافظ ابن كثير – رحمه الله – ضرب تبارك وتعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعه انقضائها وزوالها بالنبات الذى أخرجه الله من الأرض بماء أنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها وما تأكل الأنعام من أب وقضب وغير ذلك (حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا) أي زينتها الفانية " وَازَّيَّنَتْ " أي حسنت بما يخرج في رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان " وَظَنَّ أَهْلُهَا " الذين زرعوها وغرسوها " أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا " أي على جذاذها وحصادها فبينما هم كذلك جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها ولهذا قال تعالى " أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا " أي يابسا بعد الخضرة والنضارة " كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ " أي كأنها ما كانت حينا قبل ذلك ثم قال تعالى " كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ " أي نبين الحجج والأدلة " لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعا مع اغترارهم بها وتمكنهم فيها وثقتهم بمواعيدها ونقلتها عنهم فإن من طبعها الهرب ممن طلبها والطلب لمن هرب منها .[2]

وهذه الأمثال تصور الحياه الدنيا في يسرها وزهرتها أروع تصوير حيث صور يسرها بأن جعل الماء الذى يختلط بنبات الأرض هو ماء المطر الذى يسقى الزرع دون كلفة ومعاناة بخلاف غيره من الماء .

قال الشيخ الجمل – رحمه الله – شبه الحياة الدنيا بماء السماء دون ماء الأرض لأن ماء السماء هو المطر لا تأثير لكسب العبد فيه بزيادة أو نقص بخلاف ماء الأرض فكان تشبيه الحياة به أنسب .[3]

(١) سورة الحديد الآية ٢٠.
(٢) تفسير ابن كثير حـ٢ صـ٤١٣ بتصرف .
(٣) حاشية الجمل حـ١٧ صـ٣٤٢ .

وصور زهرة الحياة الدنيا بأن شبهها بعروس تزينت بأجمل زينه ولبست أفخم الثياب كما قال تعالى " حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ "

قال الإمام الفخر : وذلك لأن التزخرف عبارة عن كمال حسن الشيء فجعلت الأرض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس إذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون وتزينت بجميع الألوان الممكنة في الزينة من حمرة وخضرة وصفرة وذهبية وبياض ولا شك أنه متى صار البستان على هذا الوجه وبهذه الصفة فإنه يفرح به المالك ويعظم رجاؤه في الانتفاع به ويصير قلبه مستغرقا فيه .(١)

وهذه الأمثال تبين أيضا قرب هذه الحياة وقصر مدتها فوصفتها بالدنيا كما قال العلامة بن عاشور :وإطلاق اسم الحياة الدنيا على تلك المدة لأنها مدة الحياة الناقصة غير الأبدية لأنها مقدر زوالها فهي دنيا.(٢)

ولذا جاء المثل في سورة الكهف معبرا عن قرب انقضائها وسرعه زوالها باختصار مشاهده وقصر عباراته فقال تعالي: { وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا } .

ومع ذلك يغتر الإنسان بها ويظن أنه قادر عليها ويملكها في يده وخالد فيها ويبنى على ذلك آمالا عريضة وأحلاما كثيرة ولكن سرعان ما تتفلت من بين يده فتزول عنه أو يزول عنها وتضيع كل آماله وأحلامه .

والإنسان إذا عرف قدر الدنيا وعرف أن مصيرها إلى زوال كان ذلك أدعى للاستعلاء على شهواتها وملذاتها و تطلع إلى ما هو خير وأبقى ، وإذا انغرس هذا المفهوم في قلب الإنسان المؤمن كان هو الدافع له في التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل والتخلق بأحسن الاخلاق

(١) مفاتيح الغيب حـ١٧ صـ٦٢ .
(٢٩ التحرير والتنوير حـ٥ صـ٣٣٠ .

ثامنا : ضرب المثل للتذكير بسنن الله في السابقين .

وسنن الله في السابقين والتي هي محل العبرة والعظة تتمثل في أمرين :

الأول : عقاب المجرمين.

الثاني : ابتلاء المؤمنين .

وقد وردت الأمثال في القرآن الكريم للتذكير بهذين الأمرين على النحو التالي:

أولاً : ضرب المثل بعقاب المجرين .

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: { وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ } (١) .

وقوله عز وجل: { فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ } (٢) .

وقوله سبحانه: { فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلا لِلْآخِرِينَ } (٣) .

قال الإمام القرطبي رحمه الله : " فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا " لمن عمل عملهم " وَمَثَلا " لمن يعمل عملهم. وقال مجاهد " سَلَفًا " إخباراً لأمة محمد " ﷺ" "وَمَثَلا" أي عبرة لهم وعن قتادة "سَلَفًا " إلى النار " وَمَثَلا " عظة لمن يأتي بعدهم.(٤)

وورود هذه الأمثال في القرآن الكريم فيه تربيه للمؤمنين وتقويم لأخلاقهم فهلاك هذه الأمم كان لاقترافهم الكثير من الجرائم المعروفة كالكبر والغرور والبطش والبغي والشذوذ والتطفيف وغير ذلك من الجرائم وفي هلاك أصحابها عبرة للمؤمنين حتى لا يكونوا مثلهم.

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٤٥ .
(٢) سورة الزخرف الآية ٨ .
(٣) سورة الزخرف الآيتان ٥٥-٥٦ .
(٤) تفسير القرطبي حـ٩ صـ ٥٩٢٢ بتصرف .

ثانياً : ضرب المثل بابتلاء المؤمنين السابقين .

قال تعالي: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } (١).

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – يقول تعالى: " أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ " قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا كما فعل بالذين من قبلكم ولهذا قال " وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء " وهى الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب . قال ابن مسعود وغيره " الْبَأْسَاء " الفقر " وَالضَّرَّاء " السقم " وَزُلْزِلُواْ " خوفوا من الأعداء "زلزالا شديدا " وامتحنوا امتحانا عظيما. أ. هـ (٢)

وهذا المثل القرآني يصور حالة الشدة التي أصابت المرسلين السابقين وأتباعهم فمع الجوع والفقر كانت شدة البأس وقوة العدو الذى ينازلهم فقد زلزلوا في المعارك زلزالا شديدا حتى بلغت القلوب الحناجر ومع ذلك صبروا وثبتوا وفي ذلك عبرة للمؤمنين للثبات عند الشدائد والصبر على البلاء والثقة في وعد الله عز وجل.

وفي ضرب هذه الأمثال والتذكير بسنن الله في السابقين تربية للمؤمنين ليتجنبوا طريق المجرمين فلا يلتاثوا بدنس ذنوبهم وليتبعوا سنة المؤمنين فيتحلوا بأجمل صفاتهم .

(١) سورة البقرة الآية ٢١٤.
(٢) تفسير ابن كثير ط ص ٥.

المبحث الثاني

ضرب الأمثال لتربية السلوك

وأعنى بذلك تقويم سلوك المؤمن وتهذيب أخلاقه وذلك بالحث على الفضيلة والتنفير من الرذيلة حتى يصل إلى مكارم الأخلاق .

وقد كان لضرب المثل في القرآن الكريم دور بارز في الدعوة إلى التخلي عن الكثير من الرذائل والتحلي بالعديد من الفضائل وسوف نبين ذلك فيما يلى :

أولاً : ضرب المثل للحث على البذل والعطاء والإنفاق في سبيل الله .

قال تعالي: { مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [١].

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابه كما ينمى الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة .[٢]

فالمثل يشبه ثواب المنفق بالزارع الذى يضع الحبة في الأرض فيصيبها الماء فتنبت سبعة أفرع بسبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة وكذلك المنفق يعطى بالصدقة الواحدة سبعمائة ضعف .

ثم قال الله تعالى : " وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء "وهنا سؤال وهو هل المضاعفة هي السبعمائة أم أكثر ؟

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦١ .
(٢) تفسير ابن كثير حـ١ صـ ٣١٦ .

قال الإمام القرطبي – رحمه الله – اختلف العلماء في معنى قوله تعالى " وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء " فقالت طائفه هي مبينة مؤكدة لما تقدم في ذكر السبعمائة وليس ثم تضعيف فوق السبعمائة .

وقالت طائفة من العلماء : بل هو إعلام بأن الله تعالى يضاعف لمن يشاء أكثر من سبعمائة ضعف .

قلت " أي القرطبي " وهذا القول أصحه لما رواه ابن ماجة عن على ابن ابى طالب وغيره أن رسول الله "صلى الله عليه وسلم" قال: (من أرسل بنفقة في سبيل الله وأقام في بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأنفق في وجهه فله بكل درهم سبعمائة الف درهم) [1] ثم تلا هذه الآية الكريمة { مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }[2] .

وما قاله الامام القرطبي هو الأولى لأن الأرض وهى المخلوقة لله – كما قال الإمام الشعراوي رحمه الله – تضاعف لك ما تعطيه أفلا يضاعف العطاء الذى خلقها ؟ وإذا كان بعض من خلق الله يضاعف لك فما بالك بالله جل وعلا ؟. [3]

ولذا كان ختام الآية بقوله تعالى " وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ " أي واسع الفضل يعطى العطاء الجزيل على العمل القليل فليعلم المنفق أن ما أنفقه لا يضيع سدى بل يرجع إليه أضعافا مضاعفة وفي ذلك تربيه للمؤمنين على العطاء والبذل والإنفاق في سبيل الله ليظل المؤمن سخى الطبع مبسوط اليد مفتاحا للخير في كل زمان ومكان .

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الجهاد باب فضل النفقة في سبيل الله حديث رقم ٢٧٦١.
(٢) تفسير القرطبي حـ٢ صـ ١١١٣ .
(٣) تفسير الشعراوي حـ٢ صـ ١١٤٦ بتصرف .

ثانياً : ضرب المثل للتأدب بآداب الصدقة والتحذير من المن [١] والأذى .

وقد بين القرآن الكريم ذلك في مثلين :

المثل الأول : بيان إبطال ثواب الصدقة بالمن والأذى كإبطال ثواب المنفق رياء

قال تعالي: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[٢].

المثل الثاني : تشبيه ضياع ثواب الصدقة مع الحاجة اليه بإحراق جنة مثمرة لرجل عجوز له ذرية ضعفاء

قال تعالي: { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُون } .

قال الإمام الفخر الرازي رحمه الله : هذا مثل آخر ذكره الله تعالى في حق من يتبع إنفاقه بالمن والأذى والمعنى أن يكون للإنسان جنة في غاية الحسن كثيرة النفع وكان الإنسان في غاية العجز عن الكسب وفي غاية شدة الحاجة وكما أن الانسان كذلك فلة ذرية أيضا في غاية الحاجة وفي غاية العجز ولا شك أن كونه محتاجا أو عاجزا مظنة الشدة والمحنة وتعلق جمع من المحتاجين العاجزين به زيادة محنة على محنة فإذا أصبح الانسان وشاهد تلك الجنة محرقة بالكلية فانظر

(١) المن : ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها مثل أن يقول قد أحسنت إليك وشبهه والأذى : السبب والتشكي وهو أعم من المن لأن المن جزء من الأذى لكنه نص عليه لكثرة وقوعه .
(٢) تفسير القرطبي جـ ٢ ص ١١٦ بتصرف .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٦٤ .

كم يكون في قلبة من الغم والحسرة ، فكذا هذا المال المؤذى إذا قدم صاحبه يوم القيامة وكان في غاية الاحتياج إلى الانتفاع بثواب عمله لم يجد هناك شيئا فيبقى لامحالة في أعظم غم وفي أكمل حسرة وحيرة وهذا المثل في غاية الحسن ونهاية الكمال . أ.هـ[٢]

وفي ضرب هذه الأمثال تربية للمؤمنين على آداب التصدق وذلك بتوجيه المنفقين إلى الرفق بالآخذين وعدم جرحهم وإيذائهم لأن ذلك يولد الضغائن ويورث الأحقاد، لما شرعت الصدقات من أجله وهو تكافل بين أهل الإسلام ونشر المودة والمحبة بين أهل الإيمان .

رابعا :- ضرب المثل لبيان عاقبة البطر وكفران النعم

وقد بين القرآن الكريم ذلك في مثلين

المثل الأول : ضرب المثل لبيان عاقبة البطر في الأفراد

قوله تعالي: { وَاضْرِبْ لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لَصَحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً لَّكِنَّ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا فعسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَآ أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يا

لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا } [1] .

في هذه الآيات الكريمات مثل لنموذجين من البشر رجل ثرى الحال تذهله الثروة وتبطره النعمة ورجل ضيق الحال لكنه معتز بنفسه صادق في إيمانه راضيا بقسمته يعلم أن القدر في الرزق بقدر الله عز وجل ،وهذا المثل يثير التعجب من بطر هذا الكافر الذى يتمرغ في نعم الله عز وجل ويثير الإعجاب من رضى هذا المؤمن الصالح الذى يحيا على الكفاف .

قال العلامة الألوسي رحمه الله : ضرب الله مثلا للفريقين المؤمنين والكافرين لا من حيث أحوالهما أن للمؤمنين في الآخرة كذا وللكافرين فيها كذا بل من حيث عصيان الكفرة مع تقلبهم في نعم الله تعالى ،وطاعة المؤمنين مع مكابدتهم مشاق الفقر أي ضرب لهم مثلا من حيثية العصيان مع النعمة والطاعة مع الفقر . أه[2]

ويصور المثل استعلاء هذا الكافر الغنى على المؤمن الفقير فقال تعالى: "وَكَانَ له ثمر فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وهو يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا" .

ويصور المثل الرجل المؤمن الغيور على دينة وهو يعظ صاحبه الكافر المستكبر ويرده عن غيه وغروره ويذكره بأصل خلقه وحقيقة قدره كما قال تعالى: "قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلا لَكِنَّ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا "

(١) سورة الكهف الآيات ٣٢ ـ ٤٤
(٢) روح المعاني جـ٨ ، ص ٢٦٠ .

ثم يوجهه إلى الأدب الواجب في حق المنعم وينذره عاقبة البطر والكبر ويحثه على الرجاء فيما هو خير من جنته وثماره حتي لا تزول هذه النعمة فقال له: "وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا" .

ويتحقق ما توقعه الرجل المؤمن وتغيرت الأمور وتبدلت الأحوال فالجنة المزهرة اليانعة صارت بوارا والرجل المتكبر المغرور أصبح منهاراً . قال تعالى: " وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا "

" وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا "

وهكذا يختتم المثل بصورة الجنة الخاوية على عروشها وصورة صاحبها وهو يقلب كفيه أسفا على ما أنفق فيها وتظهر قدرة الله وولايته وتتوارى قدرة الإنسان .

المثل الثانى : ضرب المثل لبيان عاقبة البطر في البلاد

قال تعالى "وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون".(١)

قال الإمام القرطبى – رحمه الله "ضرب الله مكة مثلا لغيرها من البلاد أي أنها مع جوار بيت الله وعمارة مسجده لما كفر أهلها أصابهم القحط فكيف بغيرها من القرى وقد قيل إنها المدينة آمنت برسول الله(ﷺ) ثم كفرت بأنعم الله لقتل عثمان بن عفان وما حدث بها بعد رسول الله (ﷺ) من الفتن وهذا قول عائشة

(١) روح المعاني جـ٧صـ٤٧٦-٤٧٨ بتصرف

وحفصة زوجي النبى(ﷺ).وقيل إنه مثل مضروب بأي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى [٢]

وسواء أكان المثل عاما أم خاصا فهو يصور حال هذه القرية الممثل بها قبل البطر والكفر فقد كانت في نعمة وسرور وأمن وأمان ثم زالت هذه النعمة وحلت النقمة و تحولت العافية بسبب الجحود والكفران

يقول العلامة الألوسي –رحمه الله–قوله (كانت آمنة) قيل : ذات أمن لا يأتي عليها ما يوجب الخوف كما يأتي علي بعض القري من إغارة أهل الشر عليها وطلب الإيقاع بها(مطمئنة) ساكنة قارة لا يحدث فيها ما يوجب الانزعاج كما يحدث في بعض القري من الفتن بين أهاليها ووقوع بعضهم في بعض فإنها قلما تأمن من إغارة عليها و هيهات هيهات أن تري شخصين متصادقين فيها :

والمرء يخشي من أبيه وابنه ويخونه فيها أخوه وجاره

(يأتيها رزقها) أقواتها (رغدا) واسعا (من كل مكان) من جميع نواحيها (فكفرت بأنعم الله) جمع نعمه وفي إيثار جمع القلة إيذان بأن كفران نعم قليلة أوجبت هذا العذاب فما بالك بكفران نعم كثيرة (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) شبه أثر الجوع والخوف وضررهما الغاشي باللباس بجامع الإحاطة والاشتمال فاستعير له اسمه وأوقع عليه الإذاقة المستعارة للإصابة وأثرت للدلالة علي شدة التأثير التي تفوت لو استعملت الإصابة (بما كانوا يصنعون) فيما قبل أو علي وجه الاستمرار. هـ

وهذه القرية جعلها الله مثلا لكل القرى لبيان عاقبة البطر والكفران وقيمة الأمن والامان وأن الأمم لا تجنى من وراء كفران النعم وإحياء الفتن إلا الخوف والجوع وخراب البلاد وتشريد العباد ، وفي ضرب هذين المثلين لبيان عاقبة كفران النعم للأفراد والأمم تربية للمؤمنين على الرضا والشكر وعدم البطر والكبر وفيهما

بيان للناس أن الغنى والفقر بيد الله لحكمة يعلمها الله وأن الخير دائما فيما اختاره الله عز وجل.

خامسا : ضرب المثل لبيان عاقبة البخل .

قال تعالي: { إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }.(١)

ومضمون هذه القصة كما قال الإمام القرطبي رحمه الله ان هذه الجنة كانت بأرض اليمن بالقرب من مكة على فراسخ من صنعاء وكانت لرجل يؤدى حق الله تعالى منها فلما مات صارت إلى ولده فمنعوا الناس خيرها وبخلوا بحق الله فيها فألكها الله من حيث لم يمكنهم دفع ماحل بها .(٢)

والآيات الكريمات تصور مدى الحرص الذى كان عليه أصحاب الجنة ومدى الصرامة في نيتهم على حرمان المساكين كما قال تعالى " إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ و لا يستثنون " ومعنى لا يستثنون أي لا يقولون إن شاء الله حتى لا تحرك هذه الكلمة مشاعرهم أو توقظ ضمائرهم أولا يستثنون أحدا من المساكين بشئ منها أو لا يستثنون شيئا من ثمارها فيبقوه للمساكين ، ثم تبين الآيات مابيته الله لأصحاب هذه الجنة جزاء ما بيتوه للمساكين

(١) سورة ن الآيات ١٧ -٢٣
(٢) تفسير القرطبي جـ١٠ صـــ٦٧١٨

فمكروا ومكر الله بهم فسلط على جنتهم الآفات ليلا فأهلكتها ولم تبق منها شيئا كما قال تعالي: فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ .

قال العلامة الالوسي . رحمه الله . : أرسل الله عليها ناراً من السماء فأحرقتها وهم نائمون فأصبحت الجنة كالصريم أي أنها احترقت فصارت سوداء كالليل المظلم (١).

وبعدما صورت الآيات حال الجنة وهلاكها صورت حال أصحابها البخلاء وهم يتسللون في الصباح لجنى ثمارها وهم لا يعلمون ما أصابهم.

" فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ. أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ. فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ. أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ. وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ " وهو تصوير رائع بديع كأنه واقع مشاهد إذ يخيل للقارئ كأنه يرقب حركتهم حين ينادى بعضهم بعضا بصوت خافت وقت الفجر قبل اسفرار الصبح فخرجوا من ديارهم في خفاء وتسللوا خفية وانطلقوا وهم يتناجون فيما بينهم ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ولو كان ذلك بالقوة ولكن كانت المفاجأة أنهم حين رأوها ظنوا أنهم قد ضلوا الطريق بسبب ما أصابها وغير شكلها كما قال الله تعالي: " فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ".

قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله [قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ] أي قد سلكنا إليها غير الطريق فتهنا عنها ثم رجعوا عما كانوا فيه وتيقنوا أنها هي فقالوا: " بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ " أي بل لاحظ لنا ولا نصيب " قَالَ أَوْسَطُهُمْ " أي أعدلهم وخيرهم " أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ " أي هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم " قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ " أتوا بالطاعة حيث لا تنفع وندموا واعترفوا حيث لا ينجع ولهذا قالوا " إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ

(١) روح المعانى جـ٣،صـ٨٠ .

يَتَلَاوَمُونَ " أي يلوم بعضهم بعضا على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب " قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ " أي اعتدينا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا "عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون "قيل رغبوا في بذلها لهم في الدنيا وقيل احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة . ثم قال الله تعالى " كَذَلِكَ الْعَذَابُ " أي هكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ومنع حق المسكين والفقير وذوى الحاجات وبدل نعمة الله كفرا "ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون" أي هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم وعذاب الآخرة أشق هـ[١]

وهكذا يضرب الحق سبحانه وتعالى المثل بهذه القصة لتربية المؤمنين على الجود والكرم وإعطاء كل ذي حق حقه والتنفير من آفة الشح والبخل حتى تبقى نعمهم مصونة من الآفات .

سادسا: ضرب المثل للتحذير من مخالفة العمل للعلم

وقد بين القرآن الكريم ذلك في مثلين :

المثل الأول :- تشبيه العالم الذى ينسلخ من آيات الله بالكلب اللاهث.

قال تعالى وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ "[٢] .

(١) تفسير ابن كثير جـ٤،صـ٤٠٧ .
(٢) سورة الأعراف الآيات ١٧٥ – ١٧٧ .

هذا الرجل الذي انسلخ من آيات الله اختلف المفسرون فيه فقيل: هو بلعام بن باعوراء وقيل: غيره.

المهم أنه بلغ مبلغا عظيما من العلم حتى كان مستجاب الدعوة لكنه نبذ كتاب الله وراء ظهره واتبع هواه فضل ضلالا بعيدا حتى كان الشيطان من أتباعه كما قال تعالى:" فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ " .

ذكر العلامة الألوسي عن الجوهري – رحمه الله – قال – أي التعبير بقوله فأتبعه الشيطان – وفيه مبالغة في اللحوق إذ جعل كأنه إمام للشيطان والشيطان يتبعه وهو من الذم بمكان ونظيره في ذلك قوله : وكان فتى من جند إبليس فارتقى به الحال حتى صار إبليس من جنده(١) .

ثم قال تعالى " وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا " أي لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها " وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ " أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها وأقبل على لذاتها ونعيمها وغرته كما غرت غيره من أولى البصائر والنهى.(٢)

ثم ضرب الله له مثلاً فقال تعالى " فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ... "

قال الإمام الفخر –رحمه الله – اعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب إنما وقع بالكلب اللاهث وأخس الحيوانات هو الكلب ، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث فمن أتاه الله العلم والدين ومال إلى الدنيا وأخلد إلى الأرض كان مشبها بأخس الحيوانات وهو الكلب اللاهث . ومعنى قوله " إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث " أن هذا الكلب إن شد عليه وهيج لهث وإن ترك أيضا لهث لأجل أن ذلك الفعل القبيح طبيعة أصلية له فلذلك هذا الحريص الضال إن وعظته فهو

(١) روح المعانى جـ٥،صـ١٥٤ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ، صـ٢٦٥.

ضال وإن لم تعظه فهو ضال لأجل أن ذلك الضلال والخسارة عادة أصلية وطبيعة ذاتية له. (١) .

وتصوير العالم الذى لا يعمل بعلمه بصورة هذا الكلب صورة مزرية ومخزية تجعل العالم يعمل للكلمة التي تخرج منه أو الحركة التي تصدر عنه ألف حساب .

المثل الثانى : تشبيه العالم الذى يحمل العلم ولا يعمل به بالحمار الذى يحمل الأسفار .

قال تعالى " مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " (٢).

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – يقول تعالى ذَامًّا لِلْيَهُودِ الَّذِينَ أُعْطُوا التَّوْرَاةَ وَحَمَلُوهَا لِلْعَمَلِ بِهَا، فَلَمْ يَعْمَلُوا بِهَا{ مَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}، أَيْ: كَمَثَلِ الْحِمَارِ إِذَا حُمِّلَ كُتُبًا لَا يَدْرِي مَا فِيهَا، فَهُوَ يَحْمِلُهَا حَمْلًا حِسِّيًّا وَلَا يَدْرِي مَا عَلَيْهِ. وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ فِي حَمْلِهِمُ الْكِتَابَ الَّذِي أُوتُوهُ، حَفِظُوهُ لَفْظًا وَلَمْ يَفْهَمُوهُ وَلَا عَمِلُوا بِمُقْتَضَاهُ، بَلْ أَوَّلُوهُ وَحَرَّفُوهُ وَبَدَّلُوهُ، فَهُمْ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْحَمِيرِ؛ لِأَنَّ الْحِمَارَ لَا فهمَ لَهُ، وَهَؤُلَاءِ لَهُمْ فُهُومٌ لَمْ يَسْتَعْمِلُوهَا ١هـ (٣) .

وتشبيه اليهود الذين يحملون التوراة ولا يعملون بما فيها بالحمار الذى يضرب به المثل في البلادة والغباء بيان لمدى جهلهم وغبائهم فليس لهم حظ من الكتب التي يحملونها إلا العناء والتعب .

وفي ضرب هذه الأمثال لبيان قبح صورة العلماء الذين يخالف عملهم علمهم تحذير شديد لعلماء الأمة أن يكونوا مثلهم فكل عالم مؤتمن على العلم الذى معه مأمور بنشره والعمل بمقتضاه وإذا كان الأمر كذلك واصبح العلماء عاملون انتشرت

(١) مفاتيح الغيب صـ١٥ ، صـ٤٧ بتصرف .
(٢) سورة الجمعة الآية ٥.
(٣) تفسير ابن كثير صـ٤ ، صـ٣٦٤.

أداب الإسلام وقيمه علما وعملا وأصبح المسلمون نموذجا يحتذى به في السلوك والأخلاق .

سابعا : ضرب المثل للتحذير من نقض العهد .

قال تعالى " وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ "[1]

في هاتين الآيتين الكريمتين بيان لما يجب علي المؤمنين من الوفاء بالعهد والتحذير من نقضه فالله شاهد عليه ثم ضرب مثلا لمن ينقض عهده فقال تعالى " وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا... " .

ذكر الحافظ ابن كثير عن السدى قال : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئا نقضته بعد انبرامه . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده وهذا القول أرجح وأظهر وسواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا .[2]

وكذا قال الشيخ الجمل : المراد به تشبيه الناقض بمن هذا شأنه من غير تعيين لأن القصد بالأمثال صرف المكلف عن الفعل إذا كان قبيحا والدعاء إلية اذا كان حسنا وذلك يتم بدون تعيين إذ لا يلزم من التشبيه ان يكون المشبه به موجودا في الخارج .[3]

فالمثل يشبه الناقض لعهده بامرأة تبرم غزلها حتى إذا وصل إلى قوته نقضته وجعلته قطعا متناثرة ثم جمعته مرة أخرى وعاودت غزله ثم نقضته ثانيا وهكذا

(١) سورة النحل اللآياتان٩٢،٩١.
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢صـ٥٨٤.
(٣) حاشية الجمل جـ٢ صـ٥٩٥.

كلما غزلت نقضت وهذه صورة تستنكرها النفوس وتنفر منها الطباع فأي إنسان عاقل يرضى بهذا الأمر أو يصور نفسه مكان هذه المرأة المجنونة التي تقدم على هذا الفعل ؟

إنها صورة مخزية يأباها الرجل الكريم وهذه الصورة شبيه بفعل الرجل اللئيم الذى يعطى العهد خدعة ثم لمصلحة ما يرجع فيه ويتحلل منه كما قال تعالى "تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة "

قال الحافظ ابن كثير– رحمه الله : "تتخذون أيمانكم دخلا بينكم " أي خديعة ومكرا " أن تكون أمة هي أربى من أمة " أي تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم فنهى الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى .[1]

وختام الآية بقوله تعالى: " إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ " بيان بأن الوفاء بالعهد والأغراء بنقضه إنما هو ابتلاء من الله عز وجل فليحذر الناس من الغدر وعليهم ان يحترموا العهود والمواثيق حتى مع غير المسلمين ليظهروا الاسلام بصورته الوضيئة وليعلم الناس أن في ديننا الأمن والأمان وما ظهر الغدر من أحد من أتباعه إلا كان مشوش الفكر أو ناقص الإيمان .

ثامنا : ضرب المثل للتنفير من الغيبة

قال تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ "[2] .

(١) تفسير ابن كثير جـ٢صـ٥٨٤.
(٢) سورة الحجرات الآية ١٢.

هذه الآية الكريمة تحذر من انتهاك حق المسلم في غيبته سواء كان بسوء الظن فيه أو التجسس علية أو غيبته بذكر ما يسوؤه حتى ولو كان فيه كما قال النبى ﷺ " أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره .

قيل أرأيت إن كان في أخى ما أقول ؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته "[1] ولأن الغيبة أقبح الأنواع الثلاثة لأن فيها إخبار للغير وفضح للغائب ضرب الحق سبحانه وتعالى لها هذا المثل فقال تعالى " وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ " .

قال الإمام القرطبى رحمه الله : مثل الله الغيبة بأكل الميته لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحى لا يعلم بغيبة من اغتابه وقال ابن عباس إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس، وقال قتادة : كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخية ميتا كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيا . واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية .

قال الشاعر :

فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لُحُومهُمْ .. وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدا [2]

وهذا المثل قد اشتمل على الكثير من المبالغات التي تصور المغتاب في أبشع صورة مما يجعل المستمع لهذا المثل ينفر من الغيبة ويكره المغتاب وقد ذكر العلامة الألوسي رحمه الله هذه المبالغات في تفسيره فقال : قوله تعالى: " أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا " تمثيل لما يصدر عن المغتاب من حيث صدوره عنه ومن حيث تعلقه بصاحبه على أفحش وجه وأشنعه طبعا وعقلا وشرعا مع مبالغات في فنون شتى : الاستفهام التقريري من حيث إنه لا يقع إلا في كلام مسلم

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب باب البر والصلة والآداب باب تحريم الغيبة رقم ٢٥٨٩.
(٢) روح المعاني جـ٣صـ٣٠٩ بتصرف .

عند كل سامع حقيقة أو ادعاء ، وإسناد الفعل إلى " أحد " إيذانا بأن أحدا من الأحدين لا يفعل ذلك ، وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهية ، وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ،وجعل المأكول أخا للآكل وميتا ، وتعقيب ذلك بقوله تعالى " فَكَرِهْتُمُوهُ " حملا على الإقرار وتحقيقا لعدم محبة ذلك أو لمحبته التي لا ينبغي مثلها ، وفي المثل السائر كني عن الغيبة بأكل الإنسان للحم مثله لأنها ذكر المثالب وتمزيق الأعراض المماثل لأكل اللحم بعد تمزيقه في استكراه العقل والشرع له ،وجعلة ميتا لأن المغتاب لا يشعر بغيبته ، ووصله بالمحبة لما جلبت علية النفوس من الميل إليها مع العلم بقبحها .

وإذا كان المثل بصورة الاستفهام التقريري الذى لا ينكره عاقل " أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ؟ " فيجب على كل من يسمعه أن يجيب قائلا : نكرة ذلك يا ربنا ونتوب إليك مما فات ونتقى الله فيما هو آت ولعل ختام الآية بقولة تعالى " وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ " تأكيد لهذا المعنى وهو تقوى الله في المستقبل والتوبة إليه مما مضى من الذنوب وإن كانت كثيرة وهذا ما تفيده المبالغة في قوله تعالي "تَوَّابٌ رَحِيمٌ" فتوبته تجب كل ذنب ورحمنة وسعت كل شيء .

(نسأل الله التوبة والمغفرة والنجاة من النار وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين) .

الخاتمة

في نهاية هذه الرحلة المباركة حول الأمثال التي ضربها الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم لتربية المؤمنين يمكن بنا أن نخلص بهذه النتائج والتوصيات :

أولا : أن ضرب الأمثال في القران الكريم لون من ألوان الهداية إلى الحق ووسيلة من وسائل التربية للمؤمنين فيجب على العلماء المتخصصين أن يهتموا بهذه الأمثال ليخرجوا من كنوزها وأسرارها ما ينفع المؤمنين .

ثانيا : على المؤمنين أن يتخلصوا من التقليد في الباطل ويجردوا أنفسهم من كل ألوان التبعية ليصلوا من خلال العقل والنقل إلى الفطرة السليمة والعقيدة الصحيحة التي تدعوا الى مكارم الأخلاق .

ثالثا : على المؤمنين أن يتحروا الحق في كل شيء ويدوروا معه أينما دار فهو الثابت الذى ينفع الناس ولا يغتروا بانتفاش الباطل وعلو أهله فنهايته سريعة كالزبد يذهب جفاء .

رابعا : أن ارتقاء الأمم يكون بإخلاص أفرادها إليها وإخلاصهم في أعمالهم ومحاسبة الصغير والكبير فان الرياء والنفاق وتولية المحاسيب دون حساب ومخادعة المسئولين وأولى الأمر يفضى إلى خراب البلاد .

خامسا : الغفلة عن حقيقة الدنيا ونسيان عقاب الآخرة وعدم الاعتبار بسنن الله في السابقين أدى إلى تمسك الناس بحطام الدنيا والانجراف في شهواتها وملذاتها دون نظر الى شرع الله أو الحياء من الناس .

سادسا : أن أكثر ضرب الأمثال في الحث على البذل والعطاء والتحذير من البطر والبخل مما يدل على أن المال له وقع في نفس الإنسان وأنه مجبول على حبه وربما يقدمه أحيانا على نفسه وولده ولذا كان غالب هذه الأمثال لتحرير الإنسان من هذه الربقة التي قد تشينه أمام الناس في الدنيا وتهلكه عند الله يوم القيامة .

سابعا : في هذه الأمثال تحذير لعلماء الأمة من مخالفة عملهم لعلمهم وتنفير لهم أن يكونوا أشباهاً للكثير من علماء أهل الكتاب الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فضلوا وأضلوا .

ثامنا : على المؤمنين أن يحترموا حقوق غيرهم فلا ينقضوا عهداً ولا ينقصوا أخاَ في حقه فان نقض العهود وانتقاص الأخوة يفضى إلى المشاحنة والقطيعة وإفساد ذات البين .

وبعد ...

فهذا جهد المقل فإن أصبت فذلك من فضل الله تعالى فله الحمد وله الشكر وإن كانت الأخرى فمنى ومن الشيطان وحسبى أننى بشر أصيب وأخطئ والكمال لله وحده والعصمة لأنبيائه ورسله .

فأسأل الله أن يوفقنا جميعا إلى ما يحبه ويرضاه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه والحمد لله رب العالمين .